Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 38:2 (2003)

الإمام الحسن البصري:
فقيه البصرة وسيّد التابعين

بركات محمد مراد

يقول الإمام الهمام الحسن البصري ـ رحمه الله: "ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من يقيننا بالموت وعملنا لغيره" ويقول: "لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه: الموت والمرض والفقر" ويقول: "الواعظ من وعظ الناس بعمله لا بقوله".

إن الذين عُرِفوا بالتقوى والورع والعلم أيام الدولة الأموية هم كثيرون، ولكن قلّ من تجد فيهم، من أحرز مكانة الحسن البصري، أو ترك في النفوس أثرا عميقا بعيد الحدود كالذي تركه الحسن. وقد يكون لعلمه وزهده وقدرته البيانية دخل كبير في ذلك؛ ولكن هذه الملكات جميعا ليست إلا مظاهر من شخصيته المحبوبة، المحترمة، المهيبة ـ التي كادت تبرأ في جوهرها ـ من النفاق في القول والعمل، وتسلم من التناقض الصريح، بين ما تريده وما تجده.

وقد كان الواقع العملي في الحياة يومئذ: يفرض على الناس ـ كما يفرض عليهم في كل زمان ـ أن يعملوا بغير ما يقولون، وأن يخفوا غير ما يظهرون، وأن يسكتوا حين يكون الكلام واجبا. وفي ذلك الجو الذي تمثله تذبذبات القراء حين كانت تجرُّهم مغريات المال والجاه، أو تنزلهم من صوامعهم المثالية ضروريات الحياة، وقف الحسن يجاهد نفسه ويروضها على عبادة الله تعالى بإخلاص رياضة نبيّ نذير، قد أصلح نفسه وعرضها على الناس، ليثبت لهم أن بلوغ الغاية أمر غير مستحيل. والحسن البصري الملقّب بسيّد التابعين، جمع بين الكتاب والسنّة، وآثار السلف الصالح، رضي الله عنهم، وكان صاحب خبرات طويلة بعصره الذي عاش فيه، وكان لخطره وتفرده في مجتمعه أن حاولت كل جماعة وفرقة أن يكون سيدا وإماما لها. ولا نكاد نجد كتابا أو بحثا في الدراسات الإسلامية الأصيلة إلا وفيه جانب من علم هذا الإمام العظيم.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

وهو من الشخصيات التي تنازع عليها كثير من الجماعات والفرق المختلفة. كل منها تنتسب باتجاهاتها إليه. لتجعل لمذهبها قيمة بين المذاهب المتعددة. ومن صعوبات الكتابة فيه أنه وجد في عصر لم يكن فيه التدوين قد أخذ دوره الكامل بعد. كما أنه لم يترك مؤلفات مستقلة كغيره من المتأخرين. اللهم إلا الآراء والأفكار المتناثرة في بطون الكتب والأبحاث والرسائل المختلفة في معظم العلوم والفنون المعروفة في عصره.

الأسطورة:

لقد احتل الحسن البصري في تاريخ الفكر الإسلامي مكانة لم يدانها من سبقوه أو من عاصروه من مفكري الإسلام. وباهَتْ البصرة به على مدن العالم الإسلامي كله. وادعته الفرق المختلفة والاتجاهات المتباينة لنفسها. فصدر عنه مختلف الآراء ومتناقض الأفكار ومتباين النظريات أو جعلته الفرق ينطق بها. وجمع فيه كل شيء بحيث يمكننا أن نقول إن أسطورة الحسن البصري كانت أضخم أسطورة في العالم الإسلامي في القرنين الثالث والرابع الهجريين.

من الأدلة على هذه الأسطورة أن صوفية الشيعة تصل الحسن البصري بعلي بن أبي طالب، ويرى الدكتور إحسان عباس أن وصل الصوفية الحسنَ بعليٍّ يلحظ منه محاولة الصوفية الشيعة نسبة مذهبهم إلى باب مدينة العلم(١). ويستخلص من الدكتور كامل الشيبي صلة الزهد بالتشيع وصدوره عنه(٢). وفي الحق إن الحسن البصري كان يعلم يقينا أن علي بن أبي طالب هو رباني الأمة وأنه سيد عبّاد المسلمين، وأن طريقته هو في العبادة تشبه طريقة علي، ولكن لا عن تشيع، كان الحسن البصري أبعد الناس عن التشيع لعلي أو عن التشيع ضده. لقد أحب الجميع وتولى الجميع، ولكن زهد علي وعبادته كانا يجذبان إلى ابن عم الرسول قلوب العباد والزهاد. وهذا ما فعله الحسن البصري ... ويتبيّن لنا من هذا أهمية الحسن البصري في تاريخ الزهد والتصوف، أو بمعنى أدق تتبيّن لنا أهمية الأسطورة. كان للحسن البصري في القرنين الثالث والرابع الهجريين صورة تختلف تماما عن صورة العابد البصري القديم. إننا نرى ـ وكما لاحظ الدكتور إحسان عباس بحق ـ أنه لما سئل الحلاّج ـ في أثناء محاكمته في بغداد ـ من أين استمد نظريته في الحج بالهمة، أجاب بأنه أخذها من **كتاب الإخلاص** للحسن البصري. فصاح القاضي في وجهه: "كذبت يا حلال الدم، قد سمعناه بمكة وليس فيه هذا".

وهذا يدل على روح الأسطورة التي لاحقت الرجل، والكتب ذات النزعات المتعارضة التي نسبت إليه. لقد نسب إليه الجبر والقدر، ونسب إليه التشيع والتسنن، فلا عجب أن ينسب إليه

الحلول والحج بالهمة وأن يتعلق بأذياله الحلاج، كما سيتعلق بأذياله العديد من الناس. ولقد أوصلوه بحذيفة بن اليمان، وأنه تلقى منه الأسرار، وهذا محال، كما أوصلوه برابعة العدوية. واصطنعوا بينهما الأحاديث، على الرغم من اختلاف عصريهما، ولكن لا يقدح هذا في الصورة العارمة المليئة الحقيقية للحسن البصري(٣).

ميلاد الحسن ونشأته:

إن أبرز ما في ميلاد الحسن البصري، أنه لم يولد عربياً، بل ولد عام ٢١هـ في المدينة المنورة من أب فارسي. أسر حين استولى العرب عليها، وكان والده نصرانيا، ثم أسلم، وتسمى باسم يسار وتزوج من أمة أيضاً بالمدينة واسمها خيرة، ولما ولد لهما الحسن أعتقا. وكانت أمه محدثة وقاصة وقد أثرت في حياة ابنها أكبر تأثير.وشهد الحسن الثورة على عثمان رضي الله تعالى عنه، ثم الأحداث السياسية التي مرت بالمدينة. وقضى الحسن البصري مرحلة الطفولة والصبا في المدينة المنورة بين أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم، وأخذ يتردد على المسجد النبوي.وفيه كان يرى ويسمع بعض الصحابة عليهم رضوان الله تعالى(٤). ونتيجة لذلك، حفظ القرآن الكريم والكثير من أحاديث النبي، مع بعض أقوال الصحابة. وكان قد بلغ وهو بالمدينة الرابعة عشر من عمره، ساعده على ذلك المدة التي قضاها في وادي القرى بين العرب الخُلّص. كما تعلم الكتابة وضبط الحساب مما أهله بعد ذلك لأن يكون كاتبا للربيع بين زياد الحارثي والي خراسان.

ولم يقتصر تردده على بيت الله تعالى لأخذ العلوم والمعارف المختلفة عن أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو في شبابه، بل كان يتردد أيضاً مع أمه في بيوت أزواج النبي، فكان يكتسب من هذا الفقه في الدين كالمسجد. وفي المدينة المنورة شهد الحسن البصري ما وقع فيه المسلمون من فتن مثيرة أدت إلى سفك الدماء، وذلك يتمثل في قتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد انطبعت هذه الصورة الدامية التي شهدها الحسن لمصرع الخليفة المقتول، مما جعله ينفر دائما من الفتن مدة حياته، يقول صاحب **المنية والأمل** وغيره: "قال الحسن: كنت بالمدينة يوم قتل عثمان وكنت ابن أربع عشرة سنة"، كذلك سمع دعوة أبي ذر الغفاري رضي الله عنه إلى توزيع أموال الأغنياء على الفقراء، مما كان له الأثر الكبير في تكوين شخصيته الخاصة، بعد أن انتقل من المدينة إلى البصرة(٥).

وفي المدينة رأى الحسن وسمع الكثير من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثا : الخليفة عثمان بن عفان، وطلحة، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وابن

عباس. وقد أثر فيه كل هؤلاء الذين عنهم أخذ علمه،ومنهم استمد فكره وزهده، وفي طريق هداهم سار الحسن، حتى لقي ربه. ومن هؤلاء الصحابة الذين شهدوا بدرا، قال الحسن فيما رواه أبو نعيم في **الحلية**، والمناوي في **الكواكب الدرية**: "والله لقد أدركت سبعين بدريا أكثر لباسهم الصوف"(٦).

وقد كان أنس بن مالك من شيوخه الذين قابلهم وأخذ عنهم وأفاد من صحبتهم، ولذلك يقول أنس: "إني لأغبط أهل البصرة بهذين الشيخين: الحسن، وابن سيرين" وكان الحسن كثيرا ما يتشبه بأنس وإن كان في نفس الوقت كان يتشبه بأصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عامة ومن روايات الحسن عن أنس ابن مالك فيما يرويه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم: "الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك"(٧). ومنها: عن الحسن عن أنس بن مالك: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: "إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت"(٨).

وقد أرسل الحديث عن بعض الصحابة، وسمع من بعضهم، وآثر من بينهم عبد الله بن عباس، فقد جذبه ابن عباس إليه بمنهج التفسير الذي اختطه، كما استمع إلى قصصه، وهي ما يعرف بالإسرائليات، وأخبار السابقين من الأمم، ومن ثم دخلت في تراث الحسن البصري نفسه وفي كلامه. ثم تتلمذ الحسن البصري على مجموعة من عباد البصرة الكبار ـ بعد أن انتقل إليها مع أهله ـ وبخاصة عامر بن عبد قيس، وحيلة ابن أشيم، وسفوان بن محرز، أو بمعنى آخر اندرج شيئاً فشيئاً في طائفة القرّاء، وأصبح بعد مضي الجيل الكبير من التابعين شيخ القرّاء.

الحسن البصري والصوفية:

لقد قرر المتأخرون من مؤرخي الصوفية أن الحسن البصري كان من أوائل من تنبه إلى أخذ التصوف من الصوف وأنه كان لباس العباد من الصحابة. فينسبون إليه أنه قال: "والله لقد أدركت سبعين بدريا أكثر لباسهم الصوف"، بل إنه رأي فيهم مجانين الصوفية "ولو رأيتموهم قلتم: مجانين. ولو رأوا خياركم لقالوا ما لهؤلاء من خلاق. ولو رأوا شراركم لقالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب"(٩).

ثم يضع الصوفية على لسانه: إنه يصف عيسى فيقول إن إدامه الجوع وشعاره الخوف ولباسه الصوف. كما أنه يصف النبيّ سليمان ـ عليه السلام ـ بأنه كان إذا جنه الليل "لبس المسوح وغسل اليد إلى العنق وبات باكيا حتى يصبح، يأكل الحشيش من الطعام ويلبس الشعر من الثياب"(١٠).

بل إن السراج الطوسي يذهب إلى أن الحسن البصري قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورضي عنهم وقد روي عنه أنه قال: "رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه. وقال: معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي"(١١).

كانت الغاية ـ كما يقول الدكتور علي سامي النشار(١٢) ـ من كل هذا وضع الحسن البصري في نسق التصوف العام، وأنه كا سابق المتصوفة ومقدمهم، فهو في نظر متأخري الصوفية ـ أول من لبس الصوف، وأنه استن هذه السنة، متابعا، لعباد الصحابة ... ولم يكن هذا صحيحا، فلم يكن الحسن البصري أول من لبس الصوف، لبسه غيره، وكانوا فعلا يعرفون باسم أصحاب الصوف، وكان منهم عبد الكريم أبو أمية، وكان زهاد المسلمين الكبار ينهونهم عن لبس الصوف، لأن فيه تشبُّها برهبان النصارى. ولا شك أن الحسن استمع إلى كل هذا. ولم نجد الحسن يسمي هؤلاء بأسماء المتصوفة أو الصوفية، بل الأرجح أنه كان يسمي أصحاب الصوف أو الزهاد عامة الذين يلبسون الخشن من الثياب بأصحاب الأكسية.

كان الحسن عثمانيا معتدلا، أحب عثمان وأحب عليا، يعرف لعثمان عظيم بلائه في الإسلام، وشراءه لبئر رومة، وتجهيزه لجيش العسرة، ويقربه لعثمان دعته وحياؤه، ويعرف لعليّ عبادته، وقربه من الله ورسوله، وكان علي الوحيد الذي دعاه الحسن برباني هذه الأمة. ورغم هذا، فقد أعتزل الحسن الفتنة، فلم يرض عن عائشة تفرق كلمة المسلمين، كما أنه لم يرض عن "شيعة علي" تقتل عثمان أولا، ثم تنشب الحرب الضارية بين المسلمين. ولكن الحسن البصري ـ في وسط كل هذه الأحداث ـ أحب عليا سيد العابدين بلا منازع.

القارئ الزاهد:

لقد أعده أهله من قبل وفي بيوت المدينة الهادئة ليكون قارئا، والقراءة كانت تعني في هذا الوقت حفظ القرآن الكريم وسماع الحديث الشريف، ومعرفة الأقضية ـ أي الفقه ـ ثم العبادة والانقطاع لها، ثم حين أتى البصرة، ورأي مشيخة العباد من حلقة القراء ينحون منحى العبادة والتنسك، ولجه قاصا واجتمعت فيه كل علوم عصره واتجاهاته، وتولى القضاء لفترة. أما أنه استحدث التصوف فهذا ما لا يثبته النقد العلمي للنصوص. وإن كل ما يمكن أن ينسب للحسن البصري في نطاق المصطلح هو أنه ذكر مصطلح الزهد، والفقيه الزاهد، فقد سئل الحسن عن شيء يقول الفقهاء فيه كذا وكذا، فقال: "وهل رأيت فقيها بعينك، إنما الفقيه الزاهد في الدنيا البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه عزّ وجل"(١٣).

وذكر السراج الطوسي أيضاً أن الحسن قد سئل: أكثر الناس تعلم الأدب، فمن نفعها عاجلا، وأوصلها آجلا. قال: التفقه في الدين، فإنه يصرف إليه قلوب المتعلمين، والزهد في الدنيا، فإنه يقربك من رب العالمين والمعرفة بما لله عليك، يحويها كمال الدين(١٤). ولذلك يقول الدكتور النشار(١٥) أنه إذا صح عليك أن هذين النصين للحسن البصري، فيكون هو أول من أطلق كلمة الزهد وكلمة الزاهد بالمعنى العبادي، وإن كان في الإمكان ـ من ناحية نقدية داخلية ـ تحقيق صحة نسبة النص الأول له، فإن النص الثاني يحوي تعديدا لمراحل التصوف ـ الفقه ـ ثم الزهد ـ ثم المعرفة ـ تعديدا لم يعرفه الحسن البصري ولم يعرفه عصره.

قصارى القول في الحسن البصري أنه كان عابدا من عباد المسلمين، على درجة كبيرة من الزهد والورع الشديد، تكلم في البصرة بكلمات رهيبة عن الجنة والنار، فكان من طائفة الخائفين التي اشتهرت بها البصرة، بل كان أكبر رجل فيها. ذلك أن الآخرين من قبله أرادوا فقط تأديب نفوسهم وتأديب حلقة صغيرة معيّنة تلتف حولهم، بينما نصّب الحسن البصري نفسه لإنقاذ المجتمع البصري مما فيه من ضلال وبالتالي المجتمع الإسلامي كله، وحمل على عاتقه مسؤولية الناس جميعاً. فكان ذو العمامة السوداء بين أخصاص البصرة، كما كان يدعوه الحجاج. سيد البصرة جميعاً، بل حاكمها الحقيقي. حتى وفاته عام ١١٠هـ.

الحسن ومسجد البصرة:

انتقل الحسن مع أسرته إلى البصرة عام ٣٦هـ في ولاية عثمان بن حنيف من قبل علي بن أبي طالب. لاعتبارات متعددة، كالحنين إلى الوطن، وخروج الإمام علي من المدينة والتكسب وغير ذلك. ومنطقة العراق حينئذاك كانت مركزا للجدل والمناقشات. حيث غصت بالمزدحم من الأفكار، والمضطرب الفسيح من الآراء. خاصة وأنها كانت تضم بين جنباتها النصارى والسريان. الذين كانوا يدرسون فيها الآداب اليونانية. وكما كان في الحيرة يونان مثقفون. كان العراق ميدانا للفتنة والحروب والتناحر المذهبي بين الشيعة والخوارج. وأهل السنّة والمعتزلة. وكان هناك كثير من أصحاب العقائد القدماء من المجوس والبراهمة وعبدة النار و أصحاب الديانات الوضعية من صابئة وزرادشتيين والتي انتشرت مقالاتهم في هذه الأصقاع. كل هذه الفرق بآراءها المختلفة كانت ساحة للأفكار والمذاهب والنحل والديانات، والتي خضعت جميعا لنقده وتمحيصه. وقد أطلع عليها وسبر غورها. وفي مسجد البصرة تعرّف إلى حطان الرقاشي فتعلم منه القراءات. وكان إذا غادر حلقته ذهب إلى مؤخرة المسجد حيث الأسود بن سريع التميمي يقضي للناس ويقرأ لهم الشعر في الثناء على الله تعالى. ثم يستمع إلى تفسير ابن عباس رضي الله عنه.

ووقعت عين الحسن في المسجد وفي الحي الذي عاش فيه الزهاد والناس يحتفون بهم ويتبركون، فانعكس ذلك كله في عقليته نظريا وعمليا، سيرة وحديثا. الأمر الذي كوّن جانبا مهما من شخصيته. وقد عاصر كلا من "ابن سيرين" و "سعيد ابن المسيب"، وقد غزا مع عبد الرحمن بن سمرة (كابل، والانيرفان، والاندغان، وزابلستان) وذلك لمدة ثلاث سنين. وكان فى هذه الأثناء ما ينفك يستمع إلى الفقهاء والمحدّثين الذين يرافقون الحملات الإسلامية.

وكان ـ رحمه الله ـ ذكيا نابها، وله قوة ذاكرة، ووعي فحفظ الفقه، وظهر فضله وتناقل الناس ورعه ونبله وزهده، فتقلّب في الأعمال والولايات، ثم اقتعد بحلقة في مسجد البصرة الكبير يحدّث الناس ويعظهم ويفقههم أمور الدين، فاختاره الخليفة عمر بن عبد العزيز لقضاء البصرة عام ٩٩هـ/ ٧١٧م، وقال لقد وليت قضاء البصرة سيد التابعين، وكانوا إذا ذكروا البصرة قالوا: شيخها الحسن استغنى عما في أيدي الناس من دنياهم، فاحتاجوا إلى ما في يده من أمر دينهم.

والذي نكتشفه من كتب المؤرخين للفرق أنه كان له مجلسان في المسجد، أحدهما عام لكل من يريد التفقه في دينه فاتحا صدره لجميع الأسئلة التي توجّه إليه. ولم يكن في مجلسه هذا مستبدا برأيه لا يدع الكلام لغيره بل على العكس كان متواضعا في ذلك، مما جعل تلميذه واصل بن عطاء يرد على سؤال مرتكب الكبيرة الذي وجه إلى الحسن قبل أن يجيب الحسن. مما حمله أن يقول: اعتزلنا واصل(١٦).

وتطور مجلس الحسن هذا في المسجد، حتى صار المقياس الذي توزن به درجة الثقافة الإسلامية في هذا الوقت، وخير تعبير له ما قاله الدكتور حمودة غرابة: بعد أن تحدّث عن الطرق المختلفة التي ظهرت بعد وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خوارج وشيعة على مختلف أنواعها: قدرية وجهمية، قال: "فزاد ذلك من حدة الجدال بين المسلمين ثم كان أن التقت هذه التيارات جميعا عند رجل له مكانة في تاريخ الإسلام العقلي وهو الحسن البصري"(١٧).

يقول أبو حيان التوحيدي في وصفه لدرس الحسن البصري نقلا عن "قرة الحراني": "ويجمع مجلسه ضروبا من الناس، وأصناف اللباس، لما يوسعه من بيانه، ويفيض عليهم من أفنانه: هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يلقن منه التأويل، وهذا يسمع منه الحلال والحرام، وهذا يتبعه في كلامه، وهذا يجرد له المقالة، وهذا يحكي له الفتيا، وهذا يتعلم الحكم والقضاء، وهذا يسمع الموعظة، وهو في جميع هذا: كالبحر العجاج تدفقا ... يجلس تحت كرسيه "قتادة" "صاحب التفسير" و "عمرو" و "واصل" صاحبا الكلام، و "ابن أبي اسحق" "صاحب النحو"، و "فرقد السنجي" صاحب "الرقائق"، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم"(١٨).

وثاني المجلسين في بيته مع بعض أصفيائه من أهل الزهد والورع. وكان يعنى بهم عناية خاصة حتى أن أهله كانوا يملّون لطول ما يجلسون معه. ولكن سرعان ما يبيّن لأهله أهميتهم وحبه لهم فتصرف النظر عنهم. هذا المجلس ـ كما يقول ابن سعد[١٩] ـ كان جل الحديث فيه عن الرقائق[٢٠]. وفي مسجد البصرة التقى الحسن بالكثير من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كأنس بن مالك خادم النبي عليه السلام، ومعقل بن يسار المزني، وعياض بن حماد التميمي، وأبي عثمان النهري وغيرهم. كذلك من التابعين أخذ عن الكثير كصلة بن أشيم، وعامر بن عبد اقيس التميمي. وصفوان بن محرز وغيره هؤلاء من الأئمة الأعلام[٢١].

ومن دلائل زهده واستغناءه عن الناس أنه عندما حمل إليه رجل من خراسان كيسا بعد انصرافه من مجلسه فيه خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب من رقيق القز. وقال له: يا أبا سعيد هذه نفقة وهذه كسوة. فقال له الحسن: عافاك الله تعالى: ضُمّ إليك نفقتك وكسوتك. فلا حاجة لنا بذلك. إنه من جلس مثل مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لقي الله تعالى يوم القيامة ولا خلاق له". وفي بيته المتواضع والمسجد الجامع قضى الحسن أكثر عمره. وقلّما كان يخرج إلى البرية أو يرتاد السوق. وكان من عادته أن يخرج لاستقبال الحجّاج بعد عودتهم وربما زار بعض جيرانه وأصحابه أو حضر عند الوالي في أمر من الأمور أو كلّفه أحدهم بحاجة فخرج لقضائها.

موقفه من الحجاج بن يوسف الثقفي:

على الرغم من شدة الحجاج بن يوسف الثقفي واشتهاره بالقسوة. وقد تولى ولاية العراق ما بين عامي ٧٥-٩٥هـ من قبل الخليفة عبد الملك بن مروان. وأخذه الناس بالقسوة. حتى قال المسعودي: "إن أعظم لذاته سفك الدماء. وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره. ولا سبق إليها سواه"[٢٢]. إلا أن موقف الحسن منه كان موقف الناصح الأمين. الذي لا يبخل بالنصيحة مهما كانت الظروف والأحوال. ولكن بالحكمة والموعظة الحسنة. علما بأن الحسن لو أراد الفتوى صراحة ضد الحجاج لانتشرت ثورة عارمة في البصرة لا يعلم مصيرها إلا الله تعالى. خاصة وأن الحسن صار إماما لأهل السنة والجماعة في عصره.

ولكن الحسن كثيرا ما كان ينصح الحجاج تارة عن طريق التصريح وأخرى عن طريق التلميح كما كان يعرض بالحجاج في خطبه منكرا عليه نفاقه ومخالفة قوله عمله فيقول: "ما زال النفاق مقموعا حتى عم هذا عمامة وقلد سيفا". ويقول أيضاً: "اتقوا الله فإن عند الله حجاجين كثيرا"[٢٣]. وعندما جاءه بعض الناس في المسجد يستفتونه في قتال هذا الطاغية. ويقصدون الحجاج قائلين له

يا أبا سعيد: ما تقول في قتال هذا الطاغية. فقال الحسن: أرى ألا تقاتلوه فإنها إما أن تكون عقوبة من الله فما أنتم برادي عقوبته. ثم قال كلمته المشهورة: يا أيها الناس والله ما سلط الله عليكم الحجاج إلا عقوبة، فلا تعارضوا عقوبة الله بالسيف. ولكن عليكم بالسكينة والتضرع"(٢٤).

هيئته وزهده ومميزاته الشخصية:

كان الحسن عالما جامعا فقيها ثقة مأمونا فصيحا وسيما. وإياه عنى الحريري بقوله في مقامته البصرية: "وزاهدكم أورع الخليفة وأحسنهم طريقة على الحقيقة". قدم مكة فأجلس على سريرها واجتمع إليه الناس فحدثهم. فقال بعضهم لم نر مثل هذا قط. وقد حج مرتين الأولى في أول عمره والثانية في آخره. وحكي أن رجلا قال للحسن: فلان اغتابك. فبعث الحسن إلى ذلك الرجل طبَقا من الحلوى. وقال بلغني أنك نقلت حسناتك إلى ديواني. فكافأتك بهذا. جاء في كتاب **آثار البلاد وأخبار العباد** أن الحجّاج سأله ما تقول في عثمان وعلي؟ فقال: "ما قال من هو خير مني. عند من هو شر منك" فقال الحجّاج: ومن هو؟ قال الحسن: "موسى عليه السلام حين سأله فرعون: ﴿ **قال فما بالُ القُرُوْن الأُوْلىٰ ۞ قالَ عِلْمُها عِنْدَ ربِّيْ فِيْ كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّيْ ولا يَنْسَىٰ** ﴾ ... علم عثمان وعلي عند الله". فقال الحجَاج: أنت سيد العلماء يا أبا سعيد.

كان الحسن البصري طويل القامة عريض العظام. عن السمعي عن أبيه قال: "ما رأيت أعرض زَنْداً من الحسن. كان عرضه شبراً"(٢٥) وكان مع طول قامته جميل الصورة وسيما متناسب التقاطيع. مما أدى بامرأة إلى أن تقول فيه بعد أن نظرت إليه وهو يتردّد على أحد أساتذته لتلقّي العلم "كان الحسن يجيء إلى حطان الرقاشي. فما رأيت شابا قط كان أحسن وجها منه"(٢٦). وكان الحسن يلبس العمامة الحرقانية السوداء المرخاة من ورائه. فكان يسميه الحجاج ذا العمامة السوداء. أما لباسه الذي يكون على جسده، فكان لا يتقيد بلباس واحد فهو يلبس الطيلسانات والجباب والخمائص الكثيرة. وكان بُردْه من الأبراد السعدية نسبة إلى سعد بن أبي وقاص الذي كساه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جبّة. وكان الحسن يفضل اللون الأسود فيما يشتري من ثياب. كما كان لا يطيل ثيابه. لأن الإطالة لم تكن سنّة الزهاد(٢٧).

وكان ـ رحمه الله ـ يحمل العصا لأنه كما قال: فيها ست خصال: سنّة الأنبياء وزينة الصلحاء وسلاح على الأعداء وعون الضعفاء، وغم المنافقين. وزيادة في الطاعات. من هذه الصفات الظاهرية وغيرها للحسن البصري يتبيّن لنا أنه كان متناسقا في مظهره كما كان مخلصا في مخبره. والداعية إلى الإصلاح بهذه الصورة الطيّبة يكون سببا في إقبال الناس عليه والأخذ بيدهم دائما إلى ما

فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة. ولذلك يقول الشيخ أبو زهرة: " وليس من شك في أن للشكل الجسماني دخلا في الاحترام إذا أضيف إليه الخلق وقوة الروح. وقد كان الحسن ممّن أتاه الله بسطة في العلم والجسم وقد قالوا: إنه كان من أجمل أهل البصرة"(٢٨).

قرأ الحسن البصري بإمعان ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية وكلام السلف الصالح عن الدنيا وزينتها، وخداعها لعباد الله تعالى. فصادف ذلك هوى في نفسه، فأعرض عن الدنيا وزخارفها. وكان في مكنته أن يثرى ثراء فاحشا، ويصل إلى أعلى المستويات في نظر الكثير من عباد المال والجاه والسلطان. ولكنه أعرض واشتد في ذلك حتى غلب عليه الخوف على الرجاء والعقاب على الثواب. هذا الموقف من الحسن للدنيا وزينتها، جعل المتصوفة من بعده ينظرون إليه بعين الإجلال والاحترام، كما جعلهم أيضاً ينسجون حوله من الأخبار ـ الصحيحة أو غير الصحيحة ـ التي بوأته مكانة عظيمة فأصبح المؤسس ـ في نظرهم ـ لهذا التراث الصوفي الكبير الذي تركوه إلى يومنا هذا. وهذا يعود في الحقيقة إلى موافقة عمله لقوله. فالحسن ـ رحمه الله ـ لم يذكر قولا إلا وتجده مترجما عمليا في شخصه، يتضح هذا من أقواله في الزهد والتي طبقها عمليا على نفسه في حياته.

ومن هذه الأقوال: "يا ابن آدم عملك عملك فإنما هو لحمك ودمك، فانظر على أي تلقى عملك. إن لأهل التقوى علامات يعرفون بها، صدق الحديث والوفاء بالعهد، ورحمة الضعفاء، وقلة الفخر والخيلاء، وبذل المعروف، وقلة المباهاة للناس، وحسن الخلق، وسعة الخلق مما يقرب إلى الله عز وجل. يا ابن آدم إنك ناظر إلى عملك. يوزن خيره وشره، فلا تحقرن من الخير شيئاً وإن هو صغر فإنك إذا رأيته سرك مكانه، ولا تحقر من الشر شيئاً فإنك إذا رأيته يساءك مكانه. فرحم الله رجلا كسب طيبا وأنفق قصدا... إلى أن قال: لو أن بالقلوب حياة، لو أن بالقلوب صلاحا لبكيتم من ليلة صبيحتها يوم القيامة. إن ليلة تمخض عن صبيحة يوم القيامة، ما سمع الخلائق بيوم قط فيه عورة بادية، ولا عين باكية، أكثر من يوم القيامة"(٢٩).

وكان ـ رحمه الله ـ من شدة زهده تراه دائما حزينا، إذا أقبل فكأنما أقبل من دفن حميمه وإذا جلس فكأنه أسير قد أمر بضرب عنقه، وكان إذا ذكرت عنده النار فكأنما لم تخلق إلا له. ويقول الحسن: "طول الحزن في الدنيا تلقيح العمل الصالح" ثم يعلل هذا الحزن بأن المؤمن لا يسعه غير ذلك لأنه بين مخافتين: بين ذنب قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما يصيب فيه من المهالك، وأنه "لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا حزن وذبل وإلا نصب وإلا ذاب وإلا تعب"(٣٠).

ومن مظاهر زهده يقول عبد الله بن شوذب عن مطر قال: "دخلنا على الحسن نعوده فما كان في البيت حشي، ولا فراش ولا بساط ولا حصير إلا سرير مرموك هو عليه"(٣١). وكان مع تديّنه وتمسكه بدينه متسامحا فاتحا صدره لكل شخص يريد أن يصل إلى الحقيقة مهما كانت نحلته أو كان مذهبه، وكان دائما يستوحي من الإسلام الدعوة إلى السلام والمحبة والأمن والأخوة. ولذلك كان يحضر حلقته النصارى وغيرهم لما يجدونه عنده من القبول وانفساح الصدر لكل ما يقولون.

وروي أن نصرانيا كان يسير مع زميل له بجوار مجلسه فقال لزميله: مل بنا إلى هذا الذي سمته سمت المسيح عليه السلام. وبلغ من تسامحه أنه ـ كما روى الخرائطي ـ كان إذا اشترى شيئاً وكان ثمنه كسر جبره لصاحبه، وهكذا نجد تسامح الحسن البصري المستمد من قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم: "رحم الله رجلا سمحا إذا باع سمحا إذا قضى سمحا إذا اقتضى"(٣٢).

أما علمه ـ رحمه الله ـ فقد كان رحب الجوانب، فإذا أردنا بالعلم الفقه وجدناه فقيها، وإذا أردنا الحديث ألفيناه محدثا، وإذا أردنا الدعوة إلى الله تعالى شاهدنا أنموذجا للداعية الموفق. ويكفي هنا شهادة أحد الصابئين كما رواها ياقوت قال: "حدثنا أبو سعيد السيرافي ـ وهمك من رجل، وناهيك من عالم، وشرعك من صدوق (وكلها بمعنى حسبك) ـ قال حدثنا جماعة من الصابئين الكتاب: أن ثابت بن قرة قال: ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس... فقيل: احصر لنا هؤلاء الثلاثة. فقال: أولهم عمر بن الخطاب في سياسته. والثاني: الحسن بن أبي الحسن البصري، فلقد كان من دراري النجوم علما وتقوى وزهدا وفصاحة. مواعظه تصل إلى القلوب، وألفاظه تلتبس بالعقول، وما أعرف له ثانيا. لا قريبا ولا مدانيا، كان منظره وفق مخبره، وعلانيته وزن سريرته، يجمع مجلسه ضروب الناس وأصناف اللباس لما يوسعهم من بيانه. هذا يأخذ عنه الحديث، وهذا يلقن منه التأويل، وهذا يسمع الحلال والحرام، وهذا يتبع في كلامه العربية، وهذا يجرد له المقالة، وهذا يحكي الفتيا، وهذا يتعلم الحكم والقضاء، وهذا يسمع الموعظة، وهو في جميع هذا كالبحر العجاج تدفقا وكالسراج الوهاج تألقا. يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير، وعمرو وواصل صاحبا الكلام، وابن أبي إسحاق صاحب النحو، وفرقد السبخي صاحب الرقائق وأشباه هؤلاء نظراؤهم فمن ذا مثله ومن يجري مجراه؟ والثالث: أبو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين"(٣٣).

وقد كان الحسن البصري شجاعا قوى الإرادة لا يخشى في الحق لومة لائم، ويكفي موقفه من الحجاج بن يوسف الثقفي في دولة بني أمية، الذي كان دائم النصح له، وكان في مجلسه حر التفكير والقول، لا يقصد بقوله إلا إحقاق الحق، كما كان حاد الذكاء، قوي الإدراك، عميق التفكير ولا يكتفي بالنظرة الأولى كعادة بعض العلماء، بل كان ـ رحمه الله ـ يكرر النظر ويراجع الفكر حتى

يتكون لديه الرأي الذي يعتد به. حينئذ نجده في رأيه صلبا لا يتزعزع ولا يلين. والدليل على ذلك أن أنس ابن مالك خادم النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ سئل عن مسألة فقال: سلوا مولانا الحسن. فقيل له أتقول ذلك؟ فقال: سلوا الحسن، فإنه سمع وسمعنا وحفظ ونسينا. كما أن مناقشته للحجاج التي عرفناها تدل على بديهة حاضرة وذهن متقد ونفس قوية، خاصة لما قال له الحجاج مرة: "ما تقول في علي وعثمان؟ قال: أقول قول من هو خير منّي عند من هو شر منك. قال فرعون لموسى: ﴿ **قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُوْنِ الْأُوْلَىٰ * قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّيْ فِيْ كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّيْ وَلاَ يَنْسَىٰ** ﴾(٣٤).

ومما يدل على بديهته وقوة ذكائه حينما مات أخوه سعيد بن أبي الحسن حزن عليه حزنا شديداً ووجد عليه كذلك. فكلّم في ذلك فقال: ما رأيت الله جعل الحزن عارا على يعقوب(٣٥). أما فصاحته، نتيجة تلقي اللغة العربية بوادي القرى، فقد كان فصيحا، رائع البيان، قوي المعاني، بليغ القول، ينطق بالحكمة، والأدلة على ذلك كثيرة منها: قال فيه الأعمش: ما زال الحسن يعتني بالحكمة حتى نطق بها. وحينما سئل الحجاج بن يوسف الثقفي: من أخطب الناس؟ قال: صاحب العمامة السوداء بين أخصاص البصرة ـ يعني الحسن". وقال عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري، ومن الحجاج الثقفي فقيل له: فأيهما أفصح؟ قال: الحسن(٣٦).

ومن أمثلة فصاحته وبلاغته قوله: "ابن آدم إنما أنت أيام كلما ذهب يوم ذهب بعضك" وقال: "فضح الموت الدنيا فلم يترك فيها لذي لب فرحا"(٣٧). وقال: "ما رأيت يقينا لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من الموت". وقال فيه الشافعي: "لو أشاء أن أقول: إن القرآن نزل بلغة الحسن لقلت لفصاحته". و لشدة فصاحته نال إعجاب اللغويين في عصره لأنه كثيرا ما كان يملأ عباراته بألفاظ فصيحة مما لم يكن مألوفا في الحديث العادي.

مدرسته وتلاميذه:

وقد كوّن الحسن البصري مدرسة نسبت إليه في مختلف العلوم والآداب الإسلامية، هذه المدرسة لم تختص بفن معيّن، بل تشعّبت فنونها وتعددت مناهجها، وكلها تدور حول القرآن الكريم، وسنّة النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فعلم القراءات ـ مثلاً ـ له مكان في هذه المدرسة،وتفسير القرآن الكريم، والعقائد الإسلامية، والآراء الفقهية والرقائق القلبية .. إلى غير ذلك من العلوم والفنون والآداب له مكان في هذه المدرسة البصرية.

وقد كان واصل بن عطاء الذي أصبح شيخا من شيوخ المعتزلة تلميذا من تلاميذه، لم ينقطع عن درسه إلا عندما خرج على أستاذه بمسألة الحكم في "مرتكب الكبيرة" والتي ضمّها إلى أصول

أخرى شكلت الأصول الخمسة عند المعتزلة. كما كان "عمرو بن عبيد" من تلاميذه والذي وصفه أستاذه الحسن للسائل فقال: "لقد سألتني عن رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الأنبياء ربّته. إن قام بأمر قعد به. وإن قعد بأمر قام به. وإن أمر بشيء كان ألزم الناس له. وإن نهى عن شيء كان أترك الناس له. ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه ولا باطنا أشبه بظاهر منه"(٣٨). وقد أصبح "عمرو بن عبيد" أيضا شيخا من شيوخ الاعتزال في عصره. وكذلك كان من تلاميذه "قتادة السدوسي" الذي اشتهر بتفسير القرآن الكريم. وأبو عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة المتميّزين في علم القراءات واللغة العربية. وكذلك من تلاميذة "عيسى الثقفي" النحوي البصري صاحب كتابي **الجامع و الكامل** في النحو. و "فرقد السبخي "من كبار زهاد المسلمين في عهد الحسن المشتهرين بالعبادة والنسك والزهادة. و "حبيب العجمي" و "مالك بن دينار" الذيْن اشتُهرا بالزهد والتنسك وكثرة العبادة. فضلا عن كثير من التلاميذ الذين يضيق عن حصرهم المقام، والذين أصبح كل منهم شيخا لمدرسة فقهية أو كلامية أو أصولية تشعبت عنها آراء واعتقادات ومذاهب.

من آراء الحسن البصري وأفكاره الدينية:

أراد الحسن أن يتلمس "المثل الأعلى" ورأى أن هذا المثل في الماضي: في عصر الأمجاد. عصر الصحابة، هؤلاء الذين كانت الدنيا أهون على أحدهم من تراب قدميه هؤلاء الذين ﴿**وَيُؤْثِرُوْنَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾. يقول: "ولقد رأيت أقواما يمسي أحدهم وما يجد عنده إلا قوته. فيقول: لا أجعل هذا كله في بطني، لأجعلن بعضه لله عزّ وجل. فيتصدق ببعضه. وإن كان أحوج مما يتصدق به عليه"(٣٩).

بل لعل أبلغ وصف لهؤلاء الصالحين من الصحابة أنهم "ألزموا الكد والعبر، وألطفوا التفكير، وصبروا على مدة الأجل القصير، عن متاع الغرور الذي إلى الفناء يصير، ونظروا إلى عاقبة مرارتها، ولم ينظروا إلى عاجلة حلاوتها. "ثم يقرر أن هؤلاء الصحابة ألزموا أنفسهم الصبر، أنزلوها من أنفسهم بمنزلة الميتة التى لا يحل الشبع منها إلا في حال الضرورة إليها. فأكلوا منها بقدر ما يرد النفس ويقى الروح، ونظر إلى نفسه وقارن بينه وبين هؤلاء فصاح: لقد أدركت أقواما ما أنا عندهم إلا لص"(٤٠). وأخذ يقارن بين هذا المثل الأعلى الإنساني وبين قومه فبكى أسفاً على الناس وعلى نفسه "فساد الحزن حياته وكونه"، "ما يسمع المؤمن في دينه إلا الحزن" وأكثر البكاء كسابقيه من العباد. وجعله سنة للناس جميعاً.

ولم يبق من ذكريات العصر الأول إلا القرآن، والقرآن مفتاح الحزن المقيم: "والله لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا حزن وذبل، وإلا نصب وإلا ذاب". ويكرر هذا المعنى كثيرا: "والله يا ابن آدم، لئن قرأت القرآن، ثم آمنت به، ليطولن في الدنيا حزنك وليشتد في الدنيا خوفك، وليكثرن في الدنيا بكاؤك". ولذلك قال البصريّون: "ما كنّا نراه إلا أنه حديث عهد بمصيبة"، ولذلك حرّم على نفسه الضحك. وقد فعل الزهاد هذا من قبله، ولكنه ذهب هو بالتحريم إلى أقصى مداه" نضحك! ولا ندري لعل الله قد أطلع على بعض أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئا، ويحك يا ابن آدم هل لك بمحاربة الله طاقة؟".

ولقد أراد للمجتمع الإسلامي أن يؤمن بالقرآن، والإيمان بالقرآن ونفاذ صوته إلى القلوب إنما معناه الحزن والبكاء، أن ينتقل الإنسان بين تفاهة الحياة وضآلتها وبين مشاهد القيامة الخالدة. لقد أعلن القرآن "موت الحياة" و "خلود القيامة" و "لابد لضمان هذا الخلود من إقامة الحداد على الحياة عاجلا، إن الحياة مأتم يتكرر كل يوم"(٤١).

وقد تساءل الباحثون عن علة الخوف في آراء الحسن البصري وكتاباته وكلماته. ونرى أن علة الخوف الشديد عنده هي الحزن ـ الحزن على قصر الحياة، وقد دفعه هذا إلى الخوف من الموت فكان يجزع عند رؤيته، ولم يكن يلقاه بهدوء وثبات، بل يراه مخيفا قاسيا، وأداه هذا الخوف إلى التشوف إلى الحياة الآخرة، إلى الخلود السرمدي في حضرة الله وفي جناته ونعيمه.

كما نستشف من شدة هذا الخوف، مدى شفافية روح الحسن البصري، وقوة إيمانه العميق، التي تستحضر حقائق الآخرة، وحقائق العالم العلوي، والتي نرى أنها قد أصبحت بالنسبة له كأنها حقائق واقعة ينظر إليها بعينه، ويطالعها ببصيرته، وهذا لا يكون إلا لأصحاب النفوس القوية والأرواح الطاهرة النقية، فهو قد جاوز ما سماه الصوفية "علم اليقين"، إلى "عين اليقين"، وهذا تحقق بمراتب الإيمان عالية، وتشوف إلى مستويات من الكمال رفيعة، وهذه النفوس القوية الإيمان لم يبق لها إلا أن تطالع "حق اليقين" الذي لا يكون إلا في الآخرة لأصحاب الهمم السامية والمراتب العالية، كما سيحدثنا عنهم أبو حامد الغزالي في كتبه الصوفية والتي سماها بالمضنون به على غير أهله.

رأي الحسن البصري في الإيمان:

كان رأي الفرق الإسلامية في زمن الحسن البصري في الإيمان يختلف فيما بينها أشد الاختلاف، فقد ذهبت "الكرامية" وبعض "المرجئة" إلى أن الإيمان قول فقط، أعم من موافقة العقيدة أولا، وهو رأي فاسد حيث يدخل المنافق. وكان مذهب "المرجئة" أن الإيمان قول واعتقاد، ولا دخل

للعمل في مفهوم الإيمان، وهو مردود بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِيْنَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَآءً﴾(٤٢). أما قول الخوارج: الإيمان: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان. ومن ترك العمل كمن ترك العقيدة كلاهما كافر مخلد في النار. فهذا أيضاً باطل لتصادمه بأحاديث الشفاعة، التي تفيد إخراج المؤمن العاصي من النار، وبأن الله تعالى فرق بين الكفر وما دونه فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُوْنَ ذٰلِكَ لِمَنْ يَشَآءُ﴾(٤٣).

أما قول المعتزلة والذي تبنّاه واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري فهو قريب من قول الخوارج، وهو القول السابق، لكنهم لا يسمون العاصي مؤمنا ولا كافرا، بل هو في منزلة بين المنزلتين، ويرد على هذا كسابقه(٤٤).

أما موقف الحسن من الإيمان فهو موقف إمام من أئمة أهل السنّة والجماعة، وهو أن الإيمان قول واعتقاد وعمل. وعلى هذا القول، الإيمان يزيد وينقص في ضوء هذه المعاني، يرى الحسن أن الإيمان الجدير باسم الإيمان هو ما يدفع إلى العمل به، فالإيمان في نظره يستلزم العمل. وعلى هذا فمن لم يؤد الصلاة فهو غير مؤمن بوجوبها. وليس معنى هذا أنه كافر بها، لأن الكافر بالصلاة يكون مؤمنا بعدم وجوبها. وليس تارك الصلاة كذلك، بل هو لم يبلغ بعد درجة الإيمان بها، كما لم ينزل أيضاً إلى درجة الإيمان بعدم وجوبها. يقول الحسن البصري: "كان الرجل إذا طلب العلم لم يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وبصره ولسانه ويده وصلاته وزهده، وإن كان الرجل ليصيب الباب من أبواب العلم فيعمل به فيكون خيراً له من الدنيا وما فيها لو كانت له فجعلها في الآخرة".

كما يقول: "ابن آدم إنك لن تجمع إيمانا وخيانة، كيف تكون مؤمنا ولا يأمنك جارك أو تكون مسلما ولا يسلم الناس منك؟ أليس قد روي عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم: "لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له"(٤٥). ومما يدل على صحة رأي الحسن البصري قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن"(٤٦) أي أن الإنسان وقت ارتكابه خلاف ما يقتضيه إيمانه لا يكون مؤمنا وإلا ما فعل خلاف ما يوجبه هذا الإيمان، فإتيان خلاف ما يوجبه إيمانه دليل على عدم إيمانه(٤٧).

أما رأي الحسن البصري في مرتكب الكبيرة فهو مبني على رأيه في الإيمان، فهو يرى أن مرتكب الكبيرة منافق، لأنه لو كان مؤمنا ما ارتكبها، وما يعلنه من الإيمان لم يتصل صميم القلب، فهو إذا ليس مؤمنا خالصا، ولا كافرا خالصا، لأنه لو كان كذلك لأظهر أعماله التي تتفق مع الكفر وجاهر بها. والدليل على رأيه هذا من كلامه: "الناس ثلاثة، مؤمن، وكافر، ومنافق. فالمؤمن من قد

ألجمه الخوف. وقوّمه ذكر العرض. وأما الكافر فقد قمعه السيف وشرده الخوف. فأذعن بالجزية وسمع بالضريبة. وأما المنافق ففي الحجرات والطرقات يسرون غير ما يعلنون. ويضمرون غير ما يظهرون(٤٨).

موقف الحسن من الجبر والاختيار:

والروايات عن الحسن في مسألة "الجبر والاختيار" متضاربة. وقد حاول أصحاب كل رأي جرّه إلى رأيهم فابن المرتضي مثلاً في كتابه **المنية والأمل** يعدُّ الحسن البصري من "المعتزلة" في الطبقة الثالثة. ويروي له رسالة بعث بها إلى "الحجاج" تثبت أنه يقول "بالاختيار". بينما يرى "الشهرستاني" أن هذه الرسالة ليست للحسن. ولعلها كانت لـ "واصل بن عطاء" فما كان الحسن ممن يخالف السلف. في أن القدر خيره وشره من الله تعالى. وأن هذه الكلمة كالمجمع عليها عندهم.

وقد كان الحسن البصري يثور في وجه من يتعللون. لإتيانهم المعاصي. بالقول "بالقضاء والقدر" وكان الحسن يثور أيضاً، حينما يرى المغالاة في إثبات مشيئة إنسانية حرة مطلقة الحرية. بجوار مشيئة الله. فقد كانت عظمة الله تسيطر على نفسه. سيطرة لا حدّ لها. ومن هنا اختلف النقل عنه. وأرادت كل فرقة أن تشرف بالانتساب إليه. وتقوى برأيه(٤٩).

الحسن البصري والتربية الصوفية:

على الرغم من أن كثيرا من الفرق الإسلامية تحاول أن تنتسب إلى الحسن البصري. وتعتنق كثيراً من آرائه وأفكاره الدينية والكلامية. حتى لقد انتسبت المعتزلة إليه كما مرّ بنا. كما انتسبت إليه كثير من الفرق البعيدة في آرائها عنه. إلا أنه يمكن أن يُعدّ أحد مؤسسي التصوف السنّي. قبل أن تتطرق إلى التصوف الإسلامي بعض النظريات المغالية والمتطرفة مثل "الحلول" و "الاتحاد" و "وحدة الوجود". تلك النظريات التي سينقدها من بعد أبو حامد الغزالي في مؤلفاته الصوفية. ويرفضها تمام الرفض.

لقد كان الحسن البصري أستاذا من أساتذة أهل السنّة والجماعة وإماما من أئمتهم. ونظرا لمثاليته الشديدة التي كان يتلمسها في السلف الصالح. فقد ولج بابا من أبواب التصوف هو باب مجاهدة النفس وتربيتها بتعاليم الإسلام الحنيف. وأخذها بالشدة من أجل تزكيتها وتصفيتها لتصير طائعة لصاحبها في سيره إلى الله تعالى. كان الحسن يرى أن أهم خطوة في تصفية النفس هي إحياء القلب وصلاحه. والقلب هو المسيطر على الجوارح. وهو الذي يسبب الدمعة الغاسلة للخطايا.

يذكر ابن الجوزي أنه بينما كان الحسن في المسجد، إذ أخذ يتنفس نفسا شديدا، وبكي حتى أرعد منبكاه. ثم قال: "لو أن بالقلوب حياة، لو أن بالقلوب صلاحا، لأبكتكم من ليلة صبيحتها يوم القيامة، إن ليلة تمخض عن صبيحة يوم القيامة ما سمع الخلائق بيوم قط أكثر من عورة بادية ولا عين باكية من يوم القيامة"(٥٠). فكان الحسن يطلب من مريديه أن يخاطبوا القلوب، وأن يراقبوا الأنفس "حادثوا هذه القلوب، فإنها سريعة الدثور، واقدعوا هذه الأنفس فإنها طلعة، وإنها تنازع إلى شر غاية، وإنكم إن لم تراقبوها، فإنها تبقى من أعمالكم شيئاً، فتصبروا وتشددوا فإنما هي ليال تعد، وإنما أنت ركب وقوف، يوشك أن يُدعى أحدكم فيجيب، ولا يلتفت فانقلبوا بصالح ما حضرتكم".

وكان يعرف أن "هذا الحق" هو وحده الذي يجهد الناس، ويحول بينهم وبين شهواتهم، ولابد من الصبر حتى تتخلص من الشهوات، ولا تصح العبادة، حتى نتخلص من الخطايا، وقد قال له شاب، أعياني قيام الليل، فأجاب الحسن: قيدتك خطاياك(٥١).

ولم يرد الحسن من تلاميذه مناجاة القلوب، وقدع النفوس وزجرها فحسب، بل أراد أن يخلق فيهم الإرادة القوية والعزم الشديد، كان يراهم يبكون، إذا استمعوا إليه فكان يصيح فيهم في لباقة نادرة: "عجيج كعجيج النساء ولا عزم، خدعة كخدعة إخوة يوسف إذ جاءوا أباهم عشاء يبكون"(٥٢). ولكي يتكون العزم ولكي تقوى الإرادة، ينبغي على الإنسان أن يصيب حقيقة الإيمان، والطريق إليه هو مراقبة عيوب النفس، والتجاوز عن عيوب نفوس الآخرين أو لا تعيبهم بعيب هو فيك" حتى تبدأ بصلاح ذلك العيب من نفسك، فتصلحه، فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيبا إلا وجدت عيبا آخر لم تصلحه، فإذا فعلت ذلك، كان شغلك في خاصة نفسك، وأحب العباد إلى الله تعالى من كان كذلك".

وبهذا كان "الحسن البصري" يرمي إلى صلاح الفرد عن طريق مراقبة النفس، ويأس من صلاح الجماعة قبل صلاح الفرد. فإذا تم إصلاح النفس، فقد بدأ المريد في اجتياز الطريق، وهو أمر عسير، إنها رياضة متجددة تولد العزم، أي الإرادة الحقيقية المسيطرة. ولذلك نادى بمحاسبة النفس، ورأى أن المؤمن الكامل في أحاديث النفس بين الاشتهاء والحرمان، بين مطالبها وزجرها، ويقول الحسن بأعلى صوته: إن المؤمن في وثاق القرآن يحول بينه وبين التهلكة، المؤمن أسير في الدنيا، ويسعى في فكاك رقبته"(٥٣).

ولذلك يرى الدكتور "علي سامي النشار"(٥٤) أن تأثير الحسن البصري في الحارث بن أسد المحاسبي، كان تأثيراً بليغا، خاصة في أحاديثه عن القلب وفي المحاسبة، فقد طوَّر الحارث

المحاسبي هذه الأحاديث إلى مذهب متكامل في علم إرادة النفس، وانتقل هذا الأثر فيما بعد إلى أبي حامد الغزالي. وبهذا القدر من أحاديث النفس ومحسبتها، والغوص في أعماقها، كان الحسن البصري ـ معلّم البصرة وكبير عبّادها ـ مربّيا صوفيا، بل شيخا له قدمه الثابتة في التصوف.

وكذلك يري الدكتور "قاسم غني" "ينبغي أن نعدّ الحسن البصري وأضرابه أمثلة لمتعبدي العهد الأموي المعدودين وزهاده، من روّاد الصوفية وعرفاء القرن التالي له، ويظهر من تحقيق أحوالهم أنهم كانوا من المسلمين المتعبدين المؤمنين المتمسكين بالشريعة في ذلك العهد(٥٥).

كما يشرح المستشرق "نيكلسون" تحول الزهد إلى تصوف بقوله: "وسرعان ما تحول الزهد إلى التصوف، فإن الحسن البصري، وهو أشهر ممثلي حركة الزهد يعدّ في نظر الصوفية واحدا منهم، وهم محقون في ذلك، لأن الحسن البصري كان ينزع إلى حياة روحية خالصة في عبادته، غير قانع بمجرد الصور الشكلية في أدائها. ويروي القشيري عنه أنه قال: "مثقال ذرة من الورع السالم خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة"(٥٦).

من أساليبه في الدعوة إلى الله:

من أهم صفات الداعية إلى الله تعالى أن يكون الداعية يائسا مما عند الناس، بهذا يكون سيدا في قومه محبوبا لديهم. أما إذا تطلع إلى دنياهم فقد أدى هذا إلى تحقيره وسقوطه في نظرهم، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله أوصني وأوجز فقال: "عليك باليأس مما في أيدي الناس فإنه الغِنَى. وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصلِّ صلاتك وأنت مودع وإياك وما يعتذر منه"(٥٧).

يقول الحسن البصري: "لا يزال الرجل كريما على الناس حتى يطمع في دنياهم، فإذا فعل استخفوا به وكرهوا حديثه وأبغضوه". وقال أعرابي لأهل البصرة: من سيدكم؟ قالوا الحسن. قال: بم سادكم؟ قالوا أحتاج الناس إلى علمه واستغنى عن دينارهم. فقال: ما أحسن هذا. ولقد اتصف الحسن البصري بالشجاعة، كما اتصف بقدرته على تغيير أسلوبه في دعوته إلى الله عزّ وجل باختلاف هؤلاء الذين يدعوهم إلى الله تعالى. فإن كانوا حكاما أو أمراء يدعوهم بالقول الليّن الذي لا خشونة فيه، قال تعالى لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾(٥٨).

ومن هنا نجد موعظة الحسن البصري للنضر بن عمرو ـ وكان واليا على البصرية ـ قوله "فاتق الله يا أيها الرجل في نفسك، وأيم الله لقد رأيت أقواما كانوا قبلك في مكانك يعلون المنابر، وتهتز لهم المراكب. ويجرون الذيول بطراً ورئاء الناس. يبلون المدر ويؤثرون الأثر، ويتنافسون في الثياب، أخرجوا من سلطانهم، وسلبوا ما جمعوا من دنياهم. وقدموا على ربهم ونزلوا على أعمالهم،

فالويل لهم يوم التغابن، وياويحهم ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيْهِ* وَأُمِّهِ وَأَبِيْهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيْهِ* لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيْهِ﴾(٥٩).

وقد سمع الحجاج الحسن البصري وهو يتحدّث إلى الناس فقال له: "ما أمدك يا حسن؟ قال الحسن سنتان من خلافة عمر. فقال الحجاج: "لعقلك أكبر من أمدك". وبلغ من حكمة الحسن التي اشتهر بها أنه كان يجلس مع كبار الدعاة من المسلمين أمثال: مجاهد، وعطاء، وطاؤوس وغيرهم ممن صاروا أساتذة للزهد والتصوف، وقالوا حين سمعوه" لم نر مثل هذا قط"(٦٠).

ونظر الحسن بفطنته إلى المجتمع الذي عاش فيه لوجدان الدينار له أثر عظيم في النفوس. والقليل من الناس هم الذين يسلمون من فتنته فقال رحمه الله: "لا يزال كريما على الناس حتى يطمع في دينارهم فإذا فعل ذلك استخفوا به، وكرهوا حديثه وأبغضوه ..." ولم يكن هذا مجرد قول، بل طبّقه على نفسه مما حبّبه إلى الناس وجعلهم يستفيدون من حكَمه ومواعظه وأصبح بهذا سيدا على البصرة.

ولقد بلغ الحسن البصري في نطقه بالحكمة مبلغا كبيراً جعل الدكتور إحسان عباس يقول عنه: "وقد ارتفع الحسن البصري إلى مرتبة المتفنّن الصحيح في تلك الأقوال التصويرية التي كانت عصارة منتزعة من تجربته ومن اندماجه في موضوعه،وهي أقوال تتصف بالبراعة والابتكار. وقال أيضاً: وصل الحسن البصري لدرجة كان تلاميذه وأهل عصره يحاكونه في كتاباته وخطبه.." (٦١). والأمثلة على ذلك كثيرة منها قول الحسن: "فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لُبٍّ فرحا". وقوله: "إن امرأ ليس بينه وبين آدم إلا أب قد مات لمعرف في الموت" وقال رجل للحسن: الفقهاء يقولون كذا. فقال: هل رأيت فقيها قط؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا البصير بدينه المداوم على عبادة ربه".

ومن أمثلة ما قاله الحسن لبعض القراء: "أنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملا تركبونه فتقطعون به المراحل، وأن من كان قبلكم رأوه رسائل إليهم من ربهم. فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار"(٦٢).

وكتب الحسن يوما إلى أحد العلماء الباحثين عن الحقيقة يقول: "إعلم أن التفكر يدعو إلى الخير والعمل به، والندم على الشيء يدعو إلى تركه. وليس ما يفنى وإن كثر يعدل ما يبقى وإن كان طلبه عزيزا، واحتمال المؤونة المنقطعة التي تعقب الراحة الطويلة خير من تعجيل راحة منقطعة تعقب مؤونة باقية"(٦٣). وكان الحسن البصري يقول: "ابن آدم، إنما أنت ضيف، والضيف مرتحل ومستعار، والعارية مؤدّاه ومردود. فما عسى مقام ضيف وبقاء عارية، لله در أقوام نظروا بعين الحقيقة وقدموا إلى دار المستقر".

هـوامـش

١- د. إحسان عباس، **الحسن البصري**، ص ١٠، دار الفكر العربي، مصر عام ١٩٥٢م وانظر د. عبد الحليم محمود: **التفكير الفلسفي في الإسلام**، ص ١٥٦، دار المعارف، مصر عام ١٩٨٤م.

٢- د. مصطفى كامل الشيبي، **الصلة بين التصوف والتشيع**، ج ٢، ص ٣١٦، مصر عام ١٩٨٢م.

٣- د. علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، ج ٣، ص ١٢٩، ١٣٠، دار المعارف، ط ٨، مصر عام ١٩٨٠م.

٤- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، تحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد، ج ١، ص ٢٢٥، مكتبة النهضة المصرية.

٥- المرتضى، **المنية والأمل**، ص ٢٣٤، مصر عام ١٩٧٥م، وابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٧، ص ١٥٧، بيروت عام ١٩٥٧م.

٦- أبو نعيم، **حلية الأولياء**، ج ٢، ص ١٣٢.

٧- ابن عبد ربه، **جامع بيان العلم وفضله**، ج ١، ص ١٨٨.

٨- ابن كثير، **التفسير**، ج ٢، ص ٢١٠، ورواه الدار قطني في الأفراد قال هذا حديث غريب تفرد به بقية.

٩- أبو نعيم، **حلية الأولياء**، ج ٢، ص ١٣٤.

١٠- المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٧.

١١- السراج الطوسي، **اللمع**، ص ٤٢، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، مطبعة السعادة مصر، عام ١٩٦٠م.

١٢- د. علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، ط ٨، ص ١٣٦، ١٣٧، دار المعارف، ١٩٨٠م.

١٣- أبو نعيم، **حلية الأولياء**، ج ٢، ص ١٤٧.

١٤- السراج الطوسي، **اللمع**، ص ١٩٤.

١٥- د. علي سامي النشار، **نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام**، ص ١٣٧.

١٦- الشهرستاني، **الملل والنحل**، ج ١، ص ٤٨.

١٧- د. حمودة غرابة، **الأشعري أبو الحسن**، ص ٣٧.

١٨- أبو حيان التوحيدي، **المقابسات**، ص ١٣٤، السندوبي مصر، عام ١٩٢٩م.

١٩- ابن سعد، **الطبقات**، ج ٧، ص ٧٤، بيروت، عام ١٩٧٥م.

٢٠- ترق القلوب بذكر رقائق الأحاديث وأخبار السلف الصالح، وزهاد القراء والصوفية.

٢١- ابن سعد، **الطبقات**، ج ٧، ص ٧٤، ٧٥.

٢٢- المسعودي، **مروج الذهب**، ج ٢، ص ١٣٠، ١٣١، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط ٢، مصر، ١٩٤٨م.

٢٣- ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، ج ٧، ص ١١٣، ١١٤.

٢٤- ابن الجوزي، **الحسن البصري**، ص ٥٧ وما بعدها، تقديم حسن السندوبي، مكتبة الخانجي مصر، ١٩٣١م.

٢٥- ابن قتيبة، **المعارف**، ص ٤٤٠، والذهبي، **تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير**، ج ٤، ص ٩٩.

٢٦- الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج ٤، ص ١٠٠، مكتبة القدس درب سعادة، مصر عام ١٣٦٩هـ.

٢٧- المصدر السابق، ج ٤، ص ١٠٠.

٢٨- الشيخ محمد أبو زهرة، من **تاريخ الجدل ـ الحسن البصري**، ص ١٤، مطبوعات معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة.

٢٩- أبو نعيم، **حلية الأولياء**، ج ٢، ص ١٤٠-١٥٥، مكتبة الخانجي مطبعة السعادة مصر، عام ١٩٣٣م.

٣٠- د. كامل مصطفى الشيبي، **الصلة بين التصوف والتشيع**، ج ١، ص ٢٩٢ وما بعدها.

٣١- الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج ٤، ص ١٠٤ وما بعدها.

٣٢- رواه البخاري في **صحيحه** عن جابر

٣٣- ياقوت، **معجم الأدباء**، ج ١٦، ص ٩٥، ٩٦، بيروت عام ١٩٥٥م.

٣٤- المرتضى، **المنية والأمل**، مصورة دار الكتب المصرية، بيروت (٢٧٧٩٨) اللوحة ٤٧، ٤٨.

٣٥- ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج ٢، ص ١٨٧.

٣٦- ابن الجوزي، **تاريخ الحسن البصري**.

٣٧- الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج ٢، ص ١٠٢.

٣٨- ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج ١، ص ٥٣٥، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية.

٣٩- أبو نعيم، **الحلية**، ج ٢، ص ١٣٣، ١٣٤.

٤٠- المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٧ **وابن الجوزي**، ج ٣، ص ١٥٦.

٤١- أبو نعيم، **الحلية**، ج ٢، ص ١٣٤ وانظر د. علي سامي النشار، **نشأة الفكر**، ج ٢، ص ١٣٤، ١٣٥.

٤٢- سورة الجاثية، الآية: ٢١.

٤٣- سورة النساء، الآية: ٤٨.

٤٤- انظر: د. مصلح سيد بيومي، **الحسن البصري من عمالقة الفكر والزهد والدعوة في الإسلام**، ص ٢٣٤، ٢٣٥، ط ٢، مصر عام ١٩٨٤م.

٤٥- ابن عبد ربه، **جامع بيان العلم وفضله**، ج ١، ص ٧٢ والحديث رواه الإمام ابن حنبل.

٤٦- الحديث رواه البغوي في **شرح السنّة**، المجلد الأول في الإيمان وكذا عبد الرزاق في **المصنف**، وأحمد في **المسند** ٣٧٦/٢، طبعة الميمنية.

٤٧- د. علي مصطفى المغربي، **تاريخ الفرق الإسلامية**، ص ٣٩، المكتبة الحسينية القاهرة، ١٩٤٨م والشيخ أبو زهرة، **من تاريخ الجدل ـ الحسن البصري**، ص ١٧.

٤٨- د. عبد الحليم محمود، **التفكير الفلسفي في الإسلام**، ص ١٥٦، ١٥٧، دار المعارف، عام ١٩٨٤م.

٤٩- ابن الجوزي، **صفوة الصفوة**، ج ٣، ص ١٥٦، حيدر آباد، دائرة المعارف العثمانية بالهند، عام ١٣٥٦هـ.

٥٠- المصدر السابق، ج ٣، ص ١٥٦.

٥١- ابن الجوزي، **صفة الصفوة**، ج ٣، ص ١٥٧، ١٥٨.

٥٢- ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، ج ٢، ص ١٩٦، طبع دار الكتب، بيروت.

٥٣- ابن الجوزي، **صفة الصفوة**، ج ٣، ص ٥٧، ٥٨.

٥٤- د. علي سامي النشار، **نشأة الفكر**، ص ١٣٦، ١٣٧.

٥٥- د. قاسم غني، **تاريخ التصوف في الإسلام**، ٢٩ ترجمة صادق نشأت، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٧م.

٥٦- نيكلسون، **في التصوف الإسلامي**، ص ٣، ترجمة د. أبو العلاء عفيفي، لجنة التأليف والترجمة والنشر مصر، عام ١٩٥٦م.

٥٧- رواه الحاكم وصححه.

٥٨- سورة طه، الآيتان: ٤٣-٤٤.

٥٩- ابن الجوزي، **الحسن البصري**، ص ٥١.

٦٠- د. مصلح سيد بيومي، **الحسن البصري**، ص ٤٢٥، ٤٢٦.

٦١- الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج ٣، ص ١٣١، ١٥٥.

٦٢- **مقدمة ابن عطية في علوم القرآن**، نشر آرثر جفري، مطبعة السنة المحمدية، عام ١٩٥٤م.

٦٣- أبو نعيم، **حلية الأولياء**، ترجمة الحسن البصري، مكتبة الخانجي مصر، عام ١٩٣٣م.

* * * *